

وفي العالم الغربي ، كتب « جورج سارثون » عن
« القزويني » في كتابه « المدخل إلى تاريخ العلوم عن العرب » ،
وكتب عنه « كراتشكوفسكي » في كتابه : « تاريخ الأدب
الجغرافي العربي » ، وكتب عنه « ايتنهاوزن » في كتابه :
« التصوير العربي » ، وكتب عنه : « تشارلس لايل » في كتابه :
« مبادئ علم الجيولوجيا » . وكتب عنه « شاخت » في
كتابيه : « تراث الإسلام » الذي نُشر مترجماً إلى العربية ، في
سلسلة : « عالم المعرفة » الكويتية .

نُشرت له طبعة مستقلة حققها وقدم لها : « فاروق سعد » .
وهناك مخطوطات مُصورة لكتاب « القزويني » في
« ميونيخ » ، و« واشنطن » ، « ودار الكتب الأهلية » في
باريس ، ومكتبة « رضا رامبور » بالهند ، ومعهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية .

في القرن القادم ، ستحِينُ مع العام الثالث في العقد الأول
من القرن الحادي والعشرين ، ذكرى ميلاد العالم العربي :
« زكريا القزويني » ، الذي وضع أوّل نواة في علم
« الجيولوجيا » أو علم طبقات الأرض ، وأوّل نواة في علم
« الكوزموغرافيا » أو علم « نشوء الكون » ، وهي ذكرى
ينبغي الاحتفال بها ، في مؤتمر ومهرجان ، تشترك فيه :
السعودية ، والعراق ، وسورية ، ومنظمة الثقافة العربية بالجامعة
العربية بمناسبة مرور ثمانمائة عام ، وتُعدُّ معاً لإلقاء المحاضرات
والأبحاث عنه ، وتقديم للناس كافة أعمال « القزويني »

تُرجم كتاب « عجائب المخلوقات » إلى الفارسية ،
والتركية ، ونُشر في طبعة مزودة بالصّور والرّسوم ، وتُرجم إلى
الفرنسية في باريس .

وطُبع كتاب « عجائب المخلوقات » ، بنصّه العربي ، في
مدينة « لوتنجين » ، وطُبع في مصر على هامش كتاب : « حياة
الحيوان الكبرى » للدّميرّي ، في أواخر القرن التاسع عشر . ثم

الكاملة ، التي كتبها للناس جميعا ، قبل أكثر من سبعمئة سنة ،
أملاً أن تكون المعرفة كالماء والهواء والنور ، في كل العصور
والبلدان . ولتكن المدينة المنورة ، هي أرض هذا المؤتمر ، وذلك
المهرجان .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٠ / ٣٥٦٧

طابع دار الكتب العامة - القاهرة - مصر

القزويني

عالم رحالة ، عاش في القرن الميلادي الثالث عشر ،
وجاب بفرسه أنحاء فارس والعراق والشام ، وكشف
أسرار الأرض ومعادنها ، وعالم الأحياء فوقها ، وبرهن
قبل كوبرنيك وجاليليو بثلاثة قرون على دوران الأرض
حول نفسها وحول الشمس ، ودوران الشمس حول نفسها

وحول مركز المجرة . وكان أول
من وضع نواة علم نشوء الكون
وقدم معارف العلم لكافة الناس
موشاة بالموروثات الأدبية
الشعبية . إنها قصة تثير الفخر
يقرأها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

- | | |
|------------------|---------------|
| ١ - ابن النفيس | ٨ - الفارابي |
| ٢ - ابن الهيثم | ٩ - الخوارزمي |
| ٣ - البيروني | ١٠ - الإدريسي |
| ٤ - جابر بن حيان | ١١ - الدميري |
| ٥ - ابن البيطار | ١٢ - ابن رشد |
| ٦ - ابن بطوطة | ١٣ - ابن ماجه |
| ٧ - ابن سينا | ١٤ - القزويني |

مركز الاهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الاهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الاهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

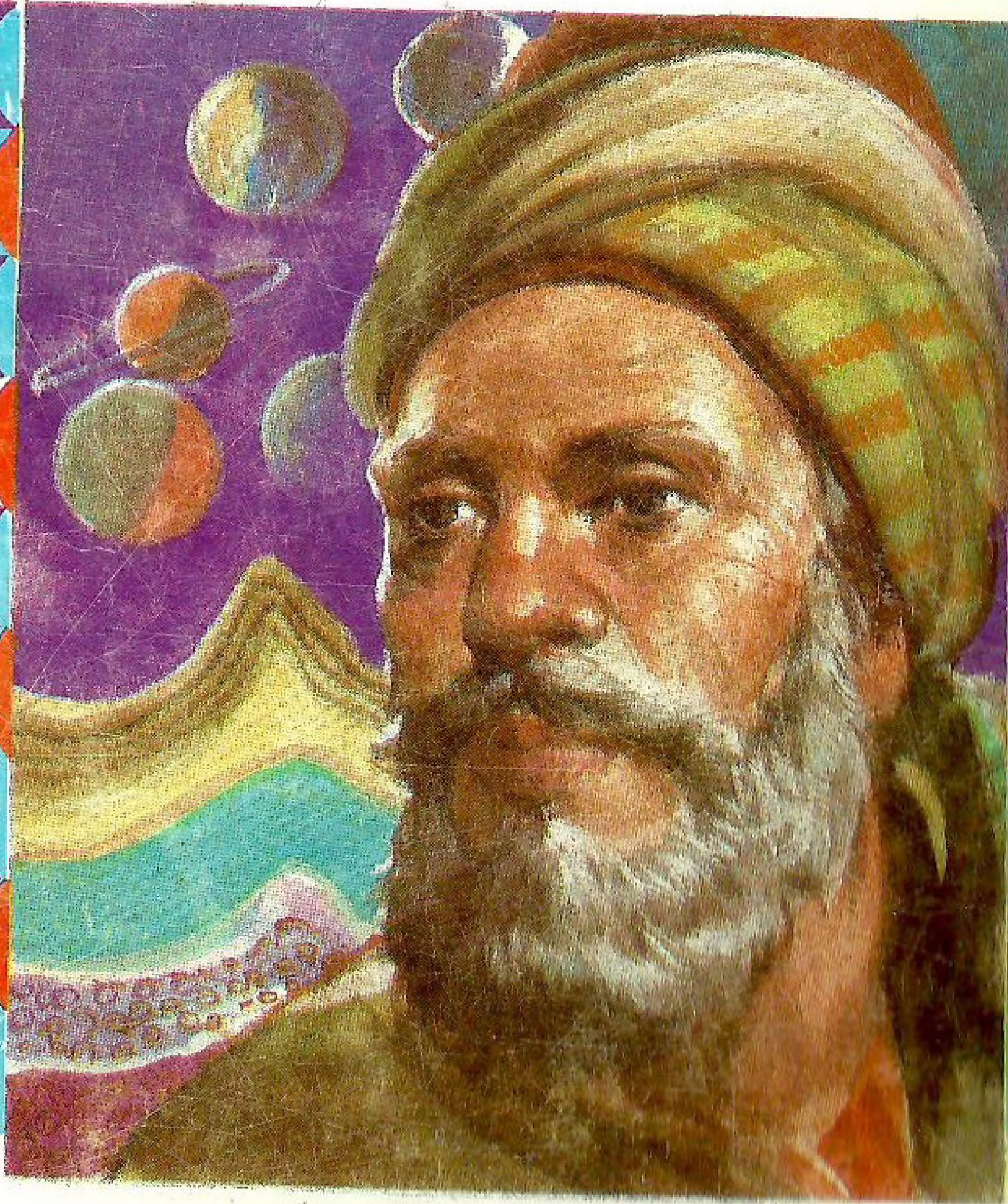
طابع الاهرام التجارية - قايريه - مصر

علماء
العرب



الفزويني

عالم الجيولوجيا



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

علماء
العرب

القروينى

عالم البيولوجيا



سليمان فياض



راعى غنم

مع غُرُوبِ الشَّمْسِ ، عاد « زكريّا » من سَفْحِ الجبل ،
يحمل على صدره مُصْحَفاً ، فى كيس مُعلّقٍ بعنقه . كان يضعُ
ساعديه على عَصاً فَوْقَ كتفيه ، مثل رُعاةِ الأغنام . وكانتِ
الأغنامُ العشرون تسيّرُ أمامه آمناً ، لا تشرُدُ منها شاةٌ ولا ماعِزٌ ،
وكأنها تعرفُ طريقها .

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

دفع « زكريّا » بابَ الفناء ، فدخلت الأغنامُ مُسرّعة ،
وأحاطت بحوض ماء ، قُربَ حظيرتها ، وأخذت تشربُ
وترتوى . وكانت قد شبت طَوالَ نهارها ، من حشائش
الجبل .

كان « محمد » والدُ « زكريّا » ، جالساً مع أمّه أمامَ بيتِ
متواضعٍ ، داخلَ الفناءِ المُسَوَّرِ بأحجارِ الجبل ، ينتظران عودةَ
زكريّا مع الأغنام . وأقبل « زكريّا » نحوهُما ، وألقى عليهما
بالسلام . وخلعَ نعلَيْه ، وجلسَ مَعهما على الحَصِيرِ ، وقد
توجت الشمسُ وجهه بسُمرَةٍ داكنة ، ووردتُ وجنتيه بحُمرةِ
الصَّبَا . ورفعَ زكريّا كيسَ المصحفِ ، وقبّله ، ووضعَه على
صندوقٍ خشبيٍّ بجانبه . وهمت أم « زكريّا » بالوقوفِ قائلة :
- سأعدّ لك شراباً ساخناً ، وطعاماً خفيفاً ، قبلَ أن
تذهبَ مع أهلك إلى المسجدِ .

فقال « زكريّا » :



- ليسَ الآنَ يا أُمِّي . فأنا لم أَجْعُ بعد . سأَسْمَعُ الآنَ
لأبِي ما حَفَظْتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ .

فَابْتَسَمَ « محمد » سَعِيداً ، وَقَالَ لَزَكَرِيَّا :

- سَتَكُونُ ، بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، فَقِيهاً نَابِهاً ، مِثْلَ أَعْمَامِكَ
وَأَخْوَائِكَ ، هُنَا فِي « قَزَوِينَ » ، وَهُنَاكَ فِي الْكُوفَةِ ، وَالْبَصْرَةِ ،
وَبَغْدَادَ ، وَمَدِينَةَ رَسُولِ اللَّهِ . اقْرَأْ يا زَكَرِيَّا ما حَفَظْتُهُ مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ . وَأَحْسِنِ التَّرْتِيلَ ، فِي قِرَاءَتِكَ لآيَاتِ اللَّهِ .

وَأَخَذَ الصَّبِي « زَكَرِيَّا » ابْنَ السَّنَوَاتِ الْعَشْرَةِ ، يَقْرَأُ
« رُبْعاً » مِنْ سُورَةِ « الْأَنْعَامِ » ، كَانَ قَدْ حَفَظَهُ أَثْنَاءَ النَّهَارِ ،
وَهُوَ يَرْعَى أَغْنَامَهُ بِالْجَبَلِ . وَكَانَتْ الْأَغْنَامُ قَدْ دَخَلَتْ وَخَدَهَا
إِلَى حَظِيرَتِهَا ، وَرَقَدَتْ مَائِلَةً عَلَى جُنُوبِهَا ، ثَانِيَةً قَوَائِمِهَا تَحْتَهَا .
وَلَمْ يَكُنْ « مُحَمَّدٌ » بِحَاجَةٍ إِلَى الْمُصْجَفِ ، وَهُوَ يُنِصْتُ لَتَرْتِيلِ
وَلَدِهِ ، فَقَدْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ ، عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ .

وَحِينَ انْتَهَى « زَكَرِيَّا » مِنْ تَسْمِيعِ ما حَفَظَهُ ، دُونَ خَطَأٍ

وَاحِدٍ ، فِي كَلِمَةٍ ، أَوْ تَشْكِيلٍ ، أَوْ تَرْتِيلٍ ، وَضَعَ وَالِدُهُ كَفَّهُ
عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

- بُوْرَكَتْ يَا بُنَيَّ . وَبُورِكَ لَكَ فِي حِفْظِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هَيَّا بِنَا لِلصَّلَاةِ .

درس المغرب

كَانَ « مُحَمَّدٌ » وَاعِظَ مَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ
« قَزَوِينَ » ، بَنَاهُ يَوْمًا « هَارُونُ الرَّشِيدُ » ، وَوَاحِدًا مِنْ فُقَهَائِهَا
الْأَعْلَامِ . وَأَدَّى « زَكَرِيَّا » الصَّلَاةَ وَرَاءَ أَبِيهِ ، مَعَ الْمُصَلِّينَ مِنَ
الرَّعَاةِ وَالْفَلَاحِينَ ، وَتُجَّارِ الْفَوَاكِهِ ، وَنَاسِجِي الْحَرِيرِ ،
وَالسَّجَّاجِيهِ الْفَارِسِيِّهِ الْفَاخِرَةِ . ثُمَّ جَلَسَ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَتَحَلَّقُونَ
حَوْلَ أَبِيهِ ، فِي حَلَقَاتٍ وَدَوَائِرَ .

وَأَخَذَ « مُحَمَّدٌ » يُلْقِي عَلَى الْحَاضِرِينَ دَرْسَ الْمَغْرِبِ . وَكَانَ
الدَّرْسُ عَنْ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ
وَمَوْجُودَاتٍ ، تَحَارُّ فِي رَوْعَتِهَا وَجَمَالِهَا الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ .

وكان « زكريّا » يُنصِتُ بسمعه إلى أبيه ، وعيناهُ ترقبانِ
وُجوهَ الجالسين . كان يعرفهم وجهاً وُجهاً ، ويعرفُ أسماءهم
وأعمالهم في « قزوين » ولو أنه سمع صوتَ أحدهم ، في ظلامِ
الليل ، لعرف من يكون .

وأثارت موعظةُ أبيه في نفسه أشواقاً لرؤية كافة المخلوقات
والموجودات على الأرض ، وفي السماء .

وقاربَ درسُ المغربِ الانتهاء ، فأذن مؤذنُ المسجدِ لصلاةِ
العشاء ، فنهض الكلُّ ، وأقاموا الصفوفَ لأداءِ الصلاة ، وراءَ
أبيه .

وكان زكريّا وأبوه آخرَ الخارجين من المسجد ، وشقاً
طريقهما ، عائدين إلى البيت ، في أرضٍ سهلة ، لا تُثيرُ ثراباً ،
ولا تُعثرُ فيها الأقدام .

الجد الأكبر

وجلسَتِ الأسرةُ لتناولِ العشاء . وأخذ « محمد » يُحدثُ
بناته وبنيه ، عن جدِّهم الأكبر ، الصَّحابيِّ الجليل : « أنسُ ابنُ
مالك » .

كان « أنسُ » قد وُلِدَ قبلَ الهجرةِ بعشرِ سنوات . وقَدَّمته
أمُّه إلى رسولِ الله ، لكي يتربِّي على يديه . فشَبَّ « أنسُ » في
بيتِ رسولِ الله ، يتبعه أينما ذهب ، ويسمعُ منه آياتِ الوحي ،
ويرقُبُ سلوكَه في حياته ، ومعَ الناس ، ويسمعُ أقوالَه
ونصائِحَه ، لأهلِ المدينة ، وللمُسلمينَ الجُددِ القادمين إلى
المدينة ، من كلِّ أنحاءِ الجزيرةِ العربيَّة .

وحكى « محمد » لبناته وبنيه عن جدِّهم الأكبر ، فيما
حكاه . قال :

- كانَ الناسُ يُلقَّبونه بلقبٍ : « أبو حمزة » . اشترك
جدُّكم « أبو حمزة » هذا ، وهو ما يزالُ بعدُ صبيّاً ، في غزوةِ

« بذر » ، ثم في غزواتٍ أُخرى مع رسول الله ، إلى أن لحق رسول الله بالرفيق الأعلى .

وتنهَّد « محمد » ، وعادَ يقول :

- انحازَ جدُّكم أنسُ ، في سنواتِ الفِتنَةِ الكُبرى ، في عهدِ الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ ، إلى الإمامِ « عليّ بن أبي طالب » ، ابنِ عمِّ رسول الله ، ضدَّ بني أُمَيَّة . ثم انحازَ إلى آلِ الزُّبَيْرِ ، في صِراعِهِمْ مع بني أُمَيَّة ، بعدَ اسْتِشْهادِ عليّ . وانهزمَ آلُ الزُّبَيْرِ أمامَ الأمويِّينَ ، فاستقرَّ جدُّكم الأكبرُ : « أبو حمزة أنسُ ابنُ مالك » في مدينةِ البصرة .

وسكت « محمد » برهة ، والأنظارُ مُعلَّقة به ، فقال له « زكريّا » :

- ثم .. ماذا حَدَثَ لجدِّنا ، هذهِ أوَّلَ مرَّةٍ تحدَّثنا فيها عنه .

فقال « محمد » :

- كان جدُّكم « أبو حمزة » قد بلغَ من العُمُرِ اثنتينِ وثمانينِ



سنةً ، حينَ نَشِبَتْ ثورةُ الإمامِ : « ابنُ الشَّعبى » ، ضدَّ : « الحجاج بن يوسف الثَّقَفِي » أميرِ العراقِ الطاغيةِ ، من قبلِ الخليفةِ الأمويِّ : « عبدُ الملكِ بنِ مروان » . وانحازَ جدُّكم « أبو حمزة » إلى الإمامِ « ابنُ الشَّعبى » وهو في هذا العمرِ ، فأخذَ أسيراً بينَ الأسرى إلى دِمَشقَ . فأطلقَ الخليفةُ « عبدُ الملك » سراحَه ، وردَّه مُعزَّزاً مُكرِّماً إلى البصرةِ ، فأقامَ بها إلى نهايةِ عُمرِه ، في مدائنِ العراقِ ، وفارسِ .

كانت تلكَ الليلةُ عاصفةً وفاصلةً ، في حياةِ « زكريّا » ،

فرقد في فراشه ، في ليلة صيفيّة قمريّة ، جافّة الهواء ، على سطح البيت ، يستعيد ذكرى جدّه الأكبر ، ويرقب نُجوم السماء ، ويتراءى لخياله جبل « البُورز » شاهقاً ، بين « قزوين » وبحر « الخزر » (بحر قزوين الآن) ، وتعاود سمعه أقاصيص أبيه في المسجد ، عن « عجائب المخلوقات » و « غرائب الموجودات » ، في ملكوت الله .

في المرعى الخصيب

في الصّباح ، ساق « زكريّا » أمامه أغنامه العشرين إلى المرعى ، وقد صَحِب في يده صرة بها زاد غذائه ، من الخُبز ، والزيتون ، والجبن ، واللحم المقدّد ، والفواكه ، وتدلّى كيسُ المصحف من عنقه على صدره . وأخذ « زكريّا » يرقى بغنماته سفحَ الجبل ، بين الصّخور والنباتات الجبليّة ، حتى بلغ بالأغنام مرعى مُنْبَسِطاً خصيباً ، يُؤثّره لأغنامه ، فتركها ترعى فيه ، من حوله ، وجلس تحت شجرة ثوت ، وارفّة الظلّ ، بالقرب من عَيْن جبليّة ، يخرج منها الماء عذباً سائغاً (حلو المذاق) بلا انقطاع ، ويجرى في جداول بين أخاديد الصّخور . كانت في

الجبل عشرات مثلها من العيون الفوّارة . وكانت ثمة طيور تحلق في سماء رماديّة ، بينها طيور الصقور ، والبازي ، والنسور ، والعصافير ، تروح وتغدو فوق هامات الجبل وقمميه ، بين « قزوين » وبحر « الخزر » . وتَمَنّى « زكريّا » لو يرقى الجبل ، ويرى ما وراء الجبل ، مثلما تَمَنّى ، في الليل ، أن يُخلّق بين الأفلاك والكواكب والنجوم ، روحاً ظمأى لمعرفة المجهول .

الوعد

مرّ عامان ، وأتم « زكريّا » حفظ القرآن . وعكف « زكريّا » على حفظ أحاديث كتاب « الموطأ » للإمام « مالك » ابن أنس « إمام مدينة رسول الله ، فأتم حفظه كله خلال عامٍ واحد . وقال محمدٌ لولده « زكريّا » :

— الحمد لله . أن لك يا بني ، أن تكف عن الذهاب مع الأغنام للمرعى ، وتركها لأخيك ، فقد حان وقت الجدّ والدّرس في عمرك . ستعلّم على يدى ، إن شاء الله ، تفسير

آياتِ كتابِ الله ، وشرح أحاديثِ رسولِ الله ، وفقه شريعة الإسلام ، وقواعد علوم النحو والصرف ، والعروض (علم أوزان الشعر) .

فقال « زكريّا » لأبيه :

— ومتى ستأذن لي بصعود جبل « البورز » ورؤية « بحر الخزر » من قمة الجبل .

فقال له أبوه :

— لا تتعجل يا بُنى ، فلكل أمرٍ أوان . ولستوف ترى ما هو أروع ، عندما ننحدر معاً يوماً ، من أعلى الجبل ، ونقوم برحلة طويلة معاً ، نبحر فيها من شاطئ « بحر الخزر » على ظهر مركب ، ونرى ما فيه من جزر ، وأسماك ، ومصائد ، وما يحيط به شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، من الموانئ والبلدان ، وروافد الأنهار ، وتسمع ، بأذنيك ، لغات وأغاني أقوام شتى ، لم تسمع مثلها في مدينة « قزوين » .

بدأ زكريّا ملهوفاً ، مهتاج الخيال ، فقال :

— متى يا أبى ؟ متى ؟

فقال له أبوه :

— بعد سنواتٍ ثلاثٍ ، إن شاء الله ، حين تكون قد أتممت دروسك كلها في اللغة ، والدين .

مدينة قزوين

كانت مدينة « قزوين » تقع فوق أرض سهلية ، ترتفع عن سطح البحر ، أكثر من خمسمائة متر ، وتتخللها مياه العيون التي تنحدر من سفوح « البورز » ، وتتجمع في وهديها ومنخفضاتها ، مع مخزون من مياه الأمطار الغزيرة ، في الخريف ، والشتاء ، والربيع ، فتتيح للناس زراعة الأرز التي تحتاج إلى مياه وفيرة ، وتنمو حولها أشجار الأكراس (الغابات) البرية ، وتتشير المراعي ، وتسمن الأغنام ، وتغطي بوفرة أصوافها البيضاء ، والبنية ، والسوداء ، في كل عام ، فتزدهر صناعات السجاد ، والألبان ، والجن . وبين أشجار

« قَزْوِينَ » ، كَانَتْ أَشْجَارُ « التَّوتِ » ، يَجْمَعُ النَّاسُ أَوْرَاقَهَا
لِدُودِ الْحَرِيرِ ، وَيُحِيلُونَ شَرَانِقَهَا إِلَى خِيوطِ حَرِيرِيَّةٍ ، تَنْسُجُهَا
أَنْوَالُ الْحَرَفِيِّينَ مِنَ الْقَمَّاشِينَ (صَانِعِي الْأَقْمِشَةِ) ثِيَاباً فَاخِرَةً
مِنَ الْحَرِيرِ الْفَارِسِيِّ ، وَيَأْتِي لِشِرَائِهِ التَّجَارُ مِنْ شُطْآنِ « بَحْرِ
الْحَزَرِ » ، وَمَدَائِنَ فَارِسَ ، وَالْهِنْدِ ، وَالْعِرَاقِ ، وَخُرَاسَانَ ،
وَحَوَارِزْمَ ، وَالتُّرْكِ ، وَالْكَرْجِ ، وَالْأَرْمَنِ .

وَكَانَتْ مَدِينَةُ « قَزْوِينَ » وَمَا تَزَالُ إِلَى الْيَوْمِ ، مَدِينَةً فَارِسِيَّةً
(إِيرَانِيَّةً) ، تَقَعُ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْ مَدِينَةِ « الرَّيِّ » (كَانَتْ
تَقَعُ فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِمَدِينَةِ طَهْرَانَ وَصَارَتْ أَطْلَالاً الْآنَ) ،
وإِلَى الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ مَدِينَةِ « رَشْتِ » . وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
قَدْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ، مَعَ مَوْجَاتِ الْفَاتِحِينَ ، فِي الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ
الْأَوَّلِ ، وَتَزَايَدَ عَدْدُهُمْ بِاسْتِقْرَارٍ كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْرِ الْعَرَبِيَّةِ
الْمُهَاجِرَةِ ، وَأَخَذُوا يَعْلَمُونَ أَبْنَاءَ هَذِهِ الْأَسْرِ شُؤْنَ الدُّنْيَا ،
وَالْحَضَارَةِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمْ شَرَائِعَ الْعَقِيدَةِ ، وَمَبَادِيءَ
الْأَخْلَاقِ .

وَمَرَّتِ السَّنَوَاتُ الثَّلَاثُ ، وَقَدْ بَلَغَ « زَكَرِيَّا » مِنَ الْعُمَرِ



سِتْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَأَتَمَّ دِرَاسَتَهُ اللَّغَوِيَّةَ وَالِدِينِيَّةَ كُلَّهَا ، فَقَالَ لَهُ
أَبُوهُ ذَاتَ صَبَاحٍ :

- الْآنَ يَا بُنَى . وَجَبَ الْوَفَاءُ بِوَعْدِي لَكَ . سَنَرْحَلُ مَعًا ،
مَعَ بَدَايَةِ الرَّبِيعِ ، صَاعِدِينَ فِي الْجَبَلِ ، وَمُنْحَدِرِينَ إِلَى سَاحِلِ
الْبُحَيْرَةِ ، وَنُتِمَّ رِحْلَتَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَخَذَ « زَكْرِيَّا » يَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ ذَوْبَانَ ثُلُوجِ الشِّتَاءِ ،
مِنْ هَامَاتٍ وَقِمَمِ جِبَالِ « الْبُورْزِ » ، وَانْحِدَارَهَا مِيَاهًا غَزِيرَةً ،
تَجْتَمِعُ أَسْفَلَ الْجَبَلِ ، فِي الْوَهَادِ وَالْمُنْخَفَضَاتِ .

بحر الخزر

ذَابَتِ الثَّلُوجُ مَعَ الرَّبِيعِ ، وَصَعَّدَ « زَكْرِيَّا » مَعَ أَبِيهِ ، فِي
الْجَبَلِ ، حَتَّى بَلَغَا قِمَّةً تَرْتَفِعُ عَنْ سَطْحِ الْبَحْرِ خَمْسَةَ آلَافٍ
وَسِتْمِائَةِ مِترٍ ، وَانْحَدَرَ مِنَ الْجَبَلِ إِلَى سُفُوحِهِ الشَّمَالِيَّةِ ، إِلَى
شَاطِئِ « بَحْرِ الْخَزَرِ » . قَالَ لَهُ أَبُوهُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الْبَحْرِ
الْفَسِيحِ :

- هَذَا هُوَ يَا بُنَى ، الْبَحْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي تَمَنَّيْتُ أَنْ تَرَاهُ .
لَيْسَ بِحَرًّا حَقِيقِيًّا يَا بُنَى ، بِالْمَعْنَى الَّتِي يُعَرِّفُ الْجُغَرَاْفِيُّونَ بِهِ
الْبَحَارَ . فَهُوَ بُحَيْرَةٌ هَائِلَةٌ ، يُقَالُ إِنَّهَا أَكْبَرُ بُحَيْرَةٍ فِي الدُّنْيَا ،
أَكْبَرُ بُحَيْرَةٍ فِي الْيَابَسِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَيَبْلُغُ عَمَقُ بَعْضِ أَجْزَاءِ فِيهَا
ثَمَانِيَةَ وَعِشْرِينَ مِترًا ، تَحْتَ سَطْحِ الْبَحْرِ ، وَيَعِيشُ حَوْلَهَا عَدِيدٌ
مِنَ الشُّعُوبِ وَالْأَجْنَاسِ .

وَلَمْ يَقُلْ لَهُ أَبُوهُ أَنَّ هَذِهِ الْبُحَيْرَةَ شَدِيدَةُ الْمُلُوحَةِ ، تَبْلُغُ
مِسَاحَتُهَا ٤٢٤,٢٤٢ كِيلُو مِترًا مَرَبَعًا .

وَصَعَّدَ « زَكْرِيَّا » مَعَ أَبِيهِ ، عَلَى ظَهْرِ مَرْكَبٍ تِجَارِيٍّ كَبِيرٍ
يَحْمِلُ الْبَضَائِعَ وَالنَّاسَ فِي الْبُحَيْرَةِ الْهَائِلَةِ ، بَيْنَ الْمَوَانِي الْعَدِيدَةِ عَلَى
سَوَاحِلِهِ ، وَبَيْنَهَا كَانَ مِينَاءًا : بَاكُو ، وَاسْتَرَاخَانَ . وَشَاهَدَ بَعَيْنِيهِ
مَصَايِدَ لِلْأَسْمَاكِ فِي جُزُرِ الْبُحَيْرَةِ ، وَشُطُطَانِهَا ، وَبَيْنَهَا أَسْمَاكُ
هِيَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ لِلْبَطَارِخِ (الْكَافِيَّارِ) . وَرَأَى رَوَاسِبَ مُلْحِيَّةٍ
مُتَرَامِيَةً تَحْجُفُّ عَنْهَا الْمِيَاهُ عَلَى السَّوَاكِحِلِ ، وَفِي الْجُزُرِ ، وَرَأَى
أَنْهَارًا أَرْبَعَةً تَصُبُّ مِيَاهَهَا فِي الْبُحَيْرَةِ ، هِيَ : أَنْهَارُ الْفُولْجَا ،
وَالْأُورَالِ ، وَكُورَا ، وَتُرْك . وَظَلَّ يُعَانِي طَوَالَ رِحْلَتِهِ ، فِي

الْبُحَيْرَةُ الْهَائِلَةُ ، مِنْ شِدَّةِ نِسْبَةِ الْبَحْرِ ، وَشِدَّةِ الْحَرِّ ، وَكَثْرَةِ
الْعَرَقِ ، طُولَ النَّهَارِ ، لَكِنَّ الْهَوَاءَ كَانَ يَصِيرُ نَدِيًّا ، وَرَطْبًا ،
وَمَنْعِشًا فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ .

وَعَادَ « زَكْرِيَّا » مَعَ أَبِيهِ مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ ، عَبْرَ مَدِينَةِ
« رَشْت » مَعَ قُدُومِ الْخَرِيفِ ، وَعَلَى يَمِينِهِ ، كَانَتْ تَبْدُو لِلْعَيْنِ
جِبَالُ الْقُوقَازِ ، وَعَلَى يَسَارِهِ كَانَتْ تَبْدُو قِمَمُ « الْبُورْز » ، وَقَدْ
تَكَلَّلَتْ هَامَاتُهَا الْعُلْيَا بِالثَّلُوجِ .

الفرار

كَانَ « مُحَمَّد » قَدْ اتَّخَذَ ، أَثْنَاءَ رِحْلَتِهِ ، قَرَارًا لَارْجَعَةٍ فِيهِ ،
هُوَ الْفِرَارُ بِأَهْلِهِ وَدِينِهِ مِنْ قَزْوِينَ ، إِلَى بَغْدَادِ . فَالْمُغُولُ قَدْ غَزَوْا
دِيَارَ أَفْغَانِسْتَانَ وَخُرَاسَانَ ، وَالتُّرْكَ ، وَخُوارِزْمَ ، وَجَنُوبِيَّ
فَارِسَ ، وَيُوشِكُونَ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِجَنُوبِيَّ « بَحْرِ الْخَزَر » ،
لِيُصْبِحَ بُحَيْرَةٌ مَغُولِيَّةٌ ، مُحَاطَةٌ بِجُيُوشِهِمْ مِنْ كُلِّ الْأَنْحَاءِ ،
وَالْمُغُولُ قَدْ اتَّخَذُوا مِنْ « قَرِهِ قَوْم » عَاصِمَةً لَهُمْ فِي قَلْبِ آسِيَا
كُلِّهَا .

وَأَعْلَنَ « مُحَمَّد » قَرَارَهُ لِأُسْرَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ « زَكْرِيَّا » وَقَدْ
عَزَّتْ عَلَيْهِ مُفَارَقَةُ مَدِينَةِ « قَزْوِينَ » ، وَسَفُوحِ جَبَلِ
« الْبُورْز » :

— حِينَ بَدَأْنَا الرِّحْلَةَ يَا أَبِي ، تُوفِّي زَعِيمَ الْمُغُولِ « جَنْكِيْزِ
خَان » ، وَلَا خَطَرَ الْآنَ مِنَ الْمُغُولِ ، بَعْدَ وَفَاتِهِ .

فَقَالَ لَهُ « مُحَمَّد » بِأَسَى :

— يَا بُنَى . لَا تُطْمَئِنِّ نَفْسُكَ بِأَمَلٍ خَادِعٍ ، وَسَرَابٍ بَرَّاقٍ
كَذُوبٍ ، مِثْلَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . الْمُغُولُ رُعَاةُ رُحَلٍ ، وَهُمْ بَدُوٌّ ،
مَایَزَالُونَ فِي عُنفَوَانِهِمْ ، وَلَسَوْفَ يَجْتَاحُونَ كُلَّ شَيْءٍ ، مِثْلَ
الْجَرَادِ ، وَالنَّمْلِ الْأَبْيَضِ . وَلَسَوْفَ تَنْهَارُ تَحْتَ سَنَابِكِ خُيُولِهِمْ
وَبِغَالِهِمْ ، إِمَارَاتُ وَمَمَالِكُ إِسْلَامِيَّةٍ عَدِيدَةٌ مَمْرُقَةٌ ، فِي أَرْمِينِيَا ،
وَأَذَرْبَيْجَانِ ، وَجُرْجَانِ ، وَالْأَنَاضُولِ ، وَرَبَّمَا فِي مَاوَرَاءِهَا غَرْبًا
مِنَ الْبِلَادِ ، فِي دِيَارِ الصَّقَالِبَةِ ، وَالْيُونَانِ ، وَالْبَلْغَارِ .



والشعراء المبدعين العظام . وكان « بيت الحكمة » ما يزال مفتوحاً لرواده من العلماء والطلاب . وفيها وجد « زكريا » راحته وعزاه وسلواه ، منذ رحيله عن « قزوين » . وزاد من شعوره بالأمن ، اشتغال والده واعظاً بمسجد في الرصافة ، مثلما كان واعظاً في مسجد « هارون الرشيد » بقزوين . وخلا قلب

وجه بغداد الحزين

ونزحت أسرة « زكريا » إلى بغداد ، واستقر بها المقام ، في حي الرصافة . وكانت بغداد قد صارت خليطاً من السكان ، بينهم العرب ، والفرس ، والترك ، والهنود ، والأرمن ، والشركس ، والأكراد ، ويتحدثون جميعاً بشتى اللغات ، واللهجات . ويتصارعون مع بعضهم البعض ، تحت رايات الفرق والمذاهب الشيعية والسنية ، وغيرها من الفرق والمذاهب . والهاربون من سنابك الخيل المغولية ، يقدون على بغداد ، فرادى وجماعات ، مع شروق الشمس وغروبها ، قادمين من الجنوب والشرق ، والشمال . يحتمون بعاصمة الخلافة العباسية ، المهیضة الجناح ، ومستظلين بحمى الخليفة العباسي الناصر ، الذي صار مثل خلفاء سابقين له ، وقادمين بعده ، العوبة في أيدي القواد والأعوان من الأمراء السلاجقة ، والخوارزمية .

لكن حلقات العلم والدرس ، ومكتبات الوراقين ، كانت ماتزال قائمة ، ونشطة في بغداد ، التي خلت من العلماء

زكريّا وعقله لطلب العلم ، على أيدي البقية الباقية من علماء بغداد ، وفي كُتب « بيت الحكمة » ، ومكتبات الورّاقين .

كون الله

اشتهر « زكريّا » في بغداد ، بلقب « القزويني » . وكان قد درس كلّ فقه الأئمة الأربعة ، وعلم أصول الدين ، وصار مؤهلاً ، وهو في سنّ العشرين ليكون قاضياً ، لكن « زكريّا » كانت قد سحرته معارف أخرى ، من معارف : الجغرافيا ، والفلك ، والنجوم ، وطبقات الأرض ، والمعادن ، والحيوانات ، والنباتات ، والطيور ، في الكتب الموسوعية العربية . وصار الكون بأسره ، كما خلقه الله ، لا كما عبث به الناس ، شغله الشاغل ، في الليل وفي النهار ، يؤدّ أن يتقتصى أسرار الأرض ، في أعماقها ، وسطوحها ، ويعرفها بلداً بلداً ، وجبلاً جبلاً ، وبحاراً ، وأنهاراً ، ومحيطات ، ويعرف من أين تبدأ ، وأين تنتهي ، ويرى كلّ ما فيها من أجناس الشعوب والأقوام ، وأنواع الحيوانات والطيور ، والأسماك والحشرات ،

والهوام (حشرات الهواء) . بل يؤدّ لو يجوب أجواز (أجواء) الفضاء ، ويرى النجوم والكواكب ، والشهب والنيازك ، والأفلاك والمجرات .
وحدث « زكريّا » أباه يوماً بما في قلبه ، من حنين لمعرفة الأرض كلّها ، بل الكون بأسره ، فابتسم أبوه ، وقال له بإشفاق :

— ما تبحث عنه يا زكريّا ، يعجز العلماء عن الوصول إليه في كل الأمم . أنت يا زكريّا تبحث عن علم لم يصل إليه أحد بعد ، وقد يكون اسمه مثلاً ، هو : علم نشوء الكون . فأنت تريد ، وفي وقت واحد ، معرفة علوم الأرض ، وعلم الفلك ، وعلوم الجغرافيا . أليس كذلك يا بني ؟

فقال زكريّا :

— أوجزت القول يا أبي . وأحسنت التحديد . فهذا هو ما

أريد معرفته .

فقال له أبوه :

— أَمَامَكَ إِذَنْ أَمْرَانِ يَا بُنَيَّ ، وَلَا غِنَى لِأَحَدِهِمَا عَنْ
الْآخَرِ ، هُمَا : الرِّحْلَةُ فِي الْبِلَادِ الْمَأْهُولَةِ (الْمَسْكُونَةِ) ،
وَالْأَصْقَاعِ (الْمَوَاضِعِ) الْمَجْهُولَةِ ، وَالبَحْثُ عَنْ الْمَعَارِفِ الَّتِي
تُرِيدُهَا ، تُجْمَعُهَا مِنْ شَتَى الْعُلُومِ ، فِي بُطُونِ الْكُتُبِ ، مُنْذُ عَهْدِ
الْيُونَانِ إِلَى يَوْمِنَا .

وَضَحِكَ أَبُوهُ ، وَقَالَ :

— هَذَا إِذَا اسْتَطَعْتَ الصَّبْرَ عَنِ الزَّوْاجِ يَا بُنَيَّ . فَالزَّوْاجُ
: بَيْتٌ ، وَاسْتِقْرَارٌ ، وَأَوْلَادٌ بِحَاجَةٍ إِلَى تَرْبِيَةٍ وَرِعَايَةٍ .

لَكِنَّ « زَكَرِيَّا » ، كَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ ، لِمَعْرِفَةِ
الْأَرْضِ ، وَمَا عَلَيْهَا ، وَمَا فِيهَا ، وَمَا يُحِيطُ بِهَا ، فِي كَوْنِ اللَّهِ
الرَّحِيبِ .

أَحْذَرِ السِّيَاسَةَ

وَعَكَفَ « زَكَرِيَّا » فِي مَكْتَبَةِ « بَيْتِ الْحِكْمَةِ » ، يَبْحَثُ
عَنْ مَعَارِفِ السَّابِقِينَ الْمُنْشُودَةِ ، فِي عُلُومِ الْأَرْضِ ، وَالْجُغْرَافِيَا ،

وَالْفَلَكَ ، وَلَا يَجِدُهَا مُجْتَمَعَةً فِي كِتَابٍ بَعِيْنِهِ ، وَلَا عِنْدَ عُلَمَاءِ
الْيُونَانِيَّةِ ، وَبَيْنَهَا كَانَتْ كُتُبُ « أَرِسْطُو » ، « وَبَطْلِمِيوس » ،
« وَارِسْتَارْكَوس » ، وَالْكُتُبُ الَّتِي أَلْفَهَا عُلَمَاءُ وَفَلَاسِفَةُ
مُسْلِمُونَ ، مِنْ بَيْنِهِمْ : الْبِيرُونِيُّ ، وَابْنُ الْهَيْثَمِ ، وَابْنُ سِينَا ،
وَيَأْخُذُ « زَكَرِيَّا » فِي جَمْعِ شَتَاتِهَا ، وَتَدْوِينِهِ فِي دِفَاتِرِهِ ،
وَالْتَعْلِيْقِ عَلَى رَوَايَاتِهَا الْمُتَنَاقِضَةِ ، بَاحْثًا فِيهَا ، عَنْ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ
وَالصَّوَابِ ، وَبِالْبَرَاهِينِ الْمُنْطَقِيَّةِ الرِّيَاضِيَّةِ ، الَّتِي دُرِّبَ عَلَيْهَا
كَدَارِسُ الْقَضَاءِ ، وَمُسْتَنْدَادًا إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ، الَّتِي تُعَزِّزُ
وَجْهَةً نَظَرٍ صَائِبَةً ، فِي مَوْجُودَاتِ الْكَوْنِ وَمَخْلُوقَاتِهِ ، وَجَمَعَ ،
فِيمَا جَمَعَهُ ، مَعْتَقَدَاتُ الشُّعُوبِ ، حَوْلَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَتِلْكَ
الْمَخْلُوقَاتِ ، مِنَ الْمَوْرُوثَاتِ الشَّعْبِيَّةِ الْمَأْثُورَةِ .

ثُمَّ اتَّخَذَ « زَكَرِيَّا » قَرَارَهُ بِالسَّفَرِ وَالتَّرَحُّالِ بَيْنَ الْبِلَادِ ، طَلَبًا
لِلْمَزِيدِ مِنَ الْمَعَارِفِ عَنِ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَخْلُوقَاتِ ، بِالْمُشَاهَدَةِ
وَالْمُعَايِنَةِ . وَأَعْلَنَ « زَكَرِيَّا » قَرَارَهُ لِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ
أَبُوهُ :

— فِي كُلِّ أَسْفَارِكَ يَا بُنَيَّ : احْذَرِ السِّيَاسَةَ ، فَلَا شَأْنَ لَكَ

كَعَالِمٍ بِالسِّيَاسَةِ ، وَنَحْنُ فِي زَمَانِ فِتْنَةٍ ، لَا يَأْمَنُ فِيهَا أَحَدٌ عَلَى
عُنُقِهِ ، مِنْ هَفْوَةٍ يَقُولُهَا لِسَانُهُ ، وَيَحْمِلُهَا وَاشٍ ، إِلَى شُرْطَى ،
أَوْ وَزِيرٍ ، أَوْ أَمِيرٍ ، أَوْ قَائِدٍ مِنْ قَوَادِ الْمُغُولِ ، أَوْ خُصُومِ
الْمُغُولِ . لَكِنِّي تَعُودُ إِلَى بَغْدَادَ سَالِمًا ، وَغَانِمًا .

وَتَزُودُ زَكْرِيَّا لِرَحْلَتِهِ بِالْمَالِ ، وَبِفَرَسٍ يَرْكَبُهُ ، وَبِغِلٍّ يَحْمِلُ
عَلَيْهِ أَوْزَاقَهُ وَكُتُبَهُ ، وَمَا خَفَّ مِنَ الزَّادِ . وَيَبْنِي مَا حَمَلَهُ كَانَتْ
كُتُبٌ فِي الْمَسَافَاتِ بَيْنَ الْبُلْدَانِ ، وَالْمَوَاقِعِ وَالْمَوَاضِعِ ، وَالنُّجُومِ
الْمُرْشِدَةِ وَالْهَادِيَةِ ، فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ . وَغَادَرَ بَغْدَادَ ذَاتَ صَبَاحٍ ،
مُودِّعًا مِنَ الْأَهْلِ ، وَالرِّفَاقِ ، وَالْعُلَمَاءِ .

العودة إلى بغداد

جَابَ « زَكْرِيَّا » فِي رِحْلَةٍ دَامَتْ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ ،
أَرْجَاءَ فَارِسَ ، وَخُرَاسَانَ وَأَفْغَانِسْتَانَ ، وَدِيَارَ التُّرْكِ ،
وَحُورَازْمَ ، وَأَرْمِينِيَا ، وَأَذَرْبَيْجَانَ ، وَالكَرْجَ ، وَكَانَ أَكْثَرُهَا
خَاضِعًا لِسُلْطَانِ الْمُغُولِ ، عُنُودَةً حِينًا ، وَصُلْحًا حِينًا آخَرَ . وَمَرَّ
فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ ، بِمَدِينَةِ « قَزْوِينَ » ، وَصَلَّى فِي مَسْجِدِ



« هَارُونَ الرَّشِيد » ، وَزَارَ مَرَامِيَ الْأَغْنَامِ ، فِي سُفُوحِ جَبَلِ
« الْبُورْزِ » .

وَعَادَ زَكَرِيَّا إِلَى بَغْدَادَ ، وَقَدْ جَاوَزَ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ ،
وَقَدْ رَأَى الْكَثِيرَ مِنْ عَجَائِبِ الْأَرْضِ ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْجَبَلِ
وَالسَّهْلِ ، وَالصَّخْرِ وَالنَّهْرِ ، وَأَلْوَانًا مِنَ الْمَعَادِنِ ، وَأَجْنَاسًا مِنَ
الْبَشَرِ ، مُخْتَلِفِي الْمَلَامِحِ وَالْوُجُوهِ ، وَالْقَامَاتِ وَالْعَيُونِ
وَالْأَنْوْفِ ، وَأَنْوَاعًا مِنَ النَّبَاتَاتِ وَالطَّيُورِ وَالْحَشَرَاتِ ، لَا تُحْصَى
عَدَدُهَا أَجْيَالُ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَكَانَ « زَكَرِيَّا » قَدْ دَوَّنَ ، كِعَادَتِهِ ،
مِلَاحَظَاتِهِ فِي دِفَاتِرِهِ الْخَاصَّةِ ، وَجَلَّبَ مَعَهُ مَعَارِفَ جَدِيدَةً ،
وَحِكَايَاتَ عَجِيبَةً ، مِنْ كُلِّ الْبِلَادِ الَّتِي دَخَلَهَا سَائِحًا ، وَغَادَرَهَا
أَكْثَرَ مَعْرِفَةً .

وَجَدَ « زَكَرِيَّا » أَبَاهُ قَدْ وَدَّعَ الدُّنْيَا ، وَأَوْصَى بِهِ أَصْدِقَاءَهُ
لِيَسَاعِدُوهُ فِي تَوَلَّى عَمَلِ الدَّوْلَةِ ، يُتَّفِقُ مِنْهُ عَلَى أَهْلِهِ . وَقَدَّمَ
لَهُ صَدِيقٌ لِأَبِيهِ ، رِسَالَةً كَتَبَهَا لَهُ أَبُوهُ ، قَبْلَ أَنْ يَفَارِقَ الدُّنْيَا ،
قَالَ لَهُ فِيهَا : « زَكَرِيَّا . اسْعَ لِلْقَضَاءِ فَأَنْتَ أَهْلٌ لَهُ . وَاكْتُبْ
يَوْمًا ، مَا عَرَفْتَهُ لِكُلِّ النَّاسِ ، لَا لِلصَّفْوَةِ وَحْدَهُمْ . وَاجْمَعْ فِيمَا

تَكْتُبُهُ بَيْنَ مَا عَرَفْتَهُ وَعَقَائِدِ دِينِكَ ، فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْكَوْنِ . وَارْعَ
اللَّهَ وَالْحَقَّ فِي كُلِّ مَا تَكْتُبُهُ يَا بُنَى . فَالْكَلِمَةُ تَبْقَى مِنْ بَعْدِكَ بِخَيْرِهَا
وَشَرِّهَا ، أَوْ .. فَالْزَمِ الصَّمْتَ » .

وَسَمِعَ « زَكَرِيَّا » وَأَطَاعَ ، فَنَفَّذَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ . سَعَى لَهُ
صَدِيقُ أَبِيهِ لَدَى قَاضِيِ الْجَمَاعَةِ (قَاضِيِ الْقَضَاةِ) فِي بَغْدَادَ ،
فَوَلَّاهُ قَضَاءَ مَدِينَتَيْ : وَاسِطَ ، وَالْحِلَّةِ ، جَنُوبِيَّ بَغْدَادَ ، بِالْقُرْبِ
مِنْ مَدِينَتَيْ : النَّجَفِ ، وَكَرْبَلَاءَ .

وَعِنْدَيْهِ ، تَزَوَّجَ « زَكَرِيَّا » ، وَاسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامُ ، فِي بَيْتٍ
فَسِيحٍ لَهُ فِنَاءٌ ، رَاحَ يَسْلَى نَفْسَهُ فِي أَوْقَاتِ فِرَاقِهِ ، بِغَرْسِ
أَشْجَارٍ وَنَبَاتَاتٍ فِيهِ ، وَرِعَايَتِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ، حَتَّى اكْتَسَتْ
الْأَرْضَ بِالْخُضْرَةِ وَبِأَلْوَانِ الزَّهْوَرِ ، وَانْبَسَطَتْ ظِلَالُ الْأَشْجَارِ
فِي أَنْحَاءِ الْفِنَاءِ .

عجائب و غرائب

سَأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ يَوْمًا ، عَمَّا يَكْتُبُهُ فِي الْأَوْرَاقِ ، وَيَجْعَلُهُ يُطِيلُ

الجلوس إليها ساعات إثر ساعات . فقال لها « زكريّا » :
- أدون كتاباً ، لم يكتبه أحد قبلي ، وقد جعلت عنوانه :
« عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ، ولا أعرف حقاً ،
متى أنتهى منه ، لكننى أعرف بالتّحديد ، ماذا سيكون فيه .

كانت زوجة زكريّا عربية ، تحسن القراءة والكتابة ،
واعتاد زكريّا فى ليالى متوالية ، أن يقرأ لها صفحات مما كتبه
فى نهاره ، أو يملئ عليها ، فى الليل ، ما تخطه بيدها ، فى ضوء
باهر ، والقناديل ، والمشكاوات ، تظل مضيفة فى ظلام الليل ،
إلى ساعة السّحر ، فى منتصف الليل .

ومرت على « زكريّا » مع القضاء فى واسط ، ومع كتابه ،
سنوات جاوزت خمس عشرة سنة . اكتسح فيها المغول بلاد
« الكرج » (جورجيا الآن) ، وانفرد فيها السلاجقة بحكم
بلاد الأناضول (تركيا الآن) ، وفشلت فيها حملة ملك فرنسا
لويس التاسع على مصر ، وأخذ أسيراً . وسقطت فيها الدولة
الأيوبية فى مصر ، فولّى الأمر من بعدهم المماليك البحريّة ، فى

مصر والشّام والحجاز . وتولّى فيها « كوبلاى خان » حفيد
« جنكيز خان » زعامة المغول الايلخانية ، وبين قواده فى
فارس ، كان القائد « هولأكو » ، وسقطت فيها مدينة
« أشبيلية » فى الأندلس فى أيدي الفرنجة ، فلم يبق فى يد عرب
الأندلس ، سوى مدينة « غرناطة » ، آخر القلاع العربيّة ، فى
أوروبا بأسرها .

أصداء كتاب

كان زكريّا قد بلغ من العمر خمسين سنة ، حين حمل
أوراق كتابه : « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ،
إلى الوراقين ، فى مدينة بغداد ، وتخاطف كتابه النّسّاحون ،
وأقبل عليه الطّلاب والعلماء ، يقرأونه فى دهشة وإنبهار ،
وتجاوز رواج الكتاب فى ذلك الحين ، أعداد العلماء وطّلاب
العلم ، إلى عامّة الناس ، ممن يعرفون القراءة والكتابة ، بل
وممن لا يجدون وسيلة للمعرفة ، سوى السّمع والإنصات ،
لقارىء من القراء ، يقرأ عليهم فضلاً من فصول كتاب

« القزويني » ، في صحن (ساحة مكشوفة بلا سقف)
مسجد ، أو فناء دار ، أو تحت شجرة ظليلة ، في حقل أو
حديقة .

وغطى صدى كتاب « القزويني » على أخبار المغول ، التي
يحملها إلى بغداد ، القادمون إليها ، من الهاربين والتجار . ولم
تكن بغداد آنذاك ، هي العاصمة الوحيدة للثقافة ، مثلما كانت
في زمن مضى ، فقد صارت هناك ، في العالم الإسلامي ،
عواصم عديدة أخرى للثقافة ، منذ عصر الدول المستقلة في
القرن العاشر الميلادي ، عصر الأمراء . وإلى هذه العواصم
حملت نسخ من كتاب « القزويني » المثير للدهشة ، عن
« عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » .

كل شيء يدور

في مدينة « الرى » جلس عالم الفلك والرياضيات « نصير
الدين الطوسي » ، يقرأ كتاب القزويني . ومثل قارىء مدرب ،
بدأ بفهرست الكتاب ليرى تقسيمه له ، ويعرف منهجه فيه .



كَانَ كِتَابُ الْعَجَائِبِ مَقْسَمًا إِلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ عَنْ « الْعُلُويَّاتِ » فِي عَالَمِ الْأَفْلَاقِ الْمَحِيطَةِ بِالْأَرْضِ ، بِأَشْكَالِهَا وَأَوْضَاعِهَا فِي الْمَكَانِ ، وَفِي الزَّمَانِ . وَقِسْمٌ عَنْ « السُّفْلِيَّاتِ » ، أَوْ « كُرَّةِ الْأَرْضِ » وَمَا فِيهَا مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ وَهَوَاءٍ وَطَبَقَاتٍ ، وَمَعَادِنَ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ .

وَأَدْرَكَ « نَصِيرُ الدِّينِ » لِفُورِهِ ، وَهُوَ يَتَصَفَّحُ الْكِتَابَ ، أَنَّ مَعَارِفَ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَتْ حِكْمًا لِلْخَاصَّةِ وَالصَّفْوَةِ ، مُنْذُ عَصْرِ الْفَلَسَفَةِ وَالْعُلَمَاءِ الْيُونَانِ ، قَدْ أَصْبَحَتْ ، فِي هَذَا الْكِتَابِ ، مُبَاحَةً وَمُتَاحَةً لِيَعْرِفَهَا النَّاسُ كَافَّةً ، وَيَكْتَشِفُوهَا ، عَنْ نَشْأَةِ الْكَوْنِ ، وَحَرَكَةِ أَجْرَامِهِ ، وَتَكُونِ نَجْمِهِ وَكَوَاكِبِهِ ، وَعَنْ الْأَرْضِ وَطَبَقَاتِهَا ، وَمَا فِي جَوْفِهَا ، وَمَا يُدَبُّ فَوْقَهَا ، وَيَحِيطُ بِهَا ، مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ مِنَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَةِ ، وَمَقْرُونَةً بِالْحِكَايَةِ الشَّعْبِيَّةِ عَنْهَا ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ .

وَأَخَذَ « نَصِيرُ الدِّينِ » يَقْرَأُ كِتَابَ « الْقَزْوِينِي » الْعَجِيبَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى نِهَائِهِ ، فِي نَهَارٍ وَاحِدٍ . وَحِينَ طَوَاهُ أَدْرَكَ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَفِي كُلِّ الْعُصُورِ وَالْبِلْدَانِ ، سَيَعْرِفُونَ أَنَّ الْأَرْضَ

كَرَّةٌ ، كَمَا عَرَفَهَا « اسْتَارْكُوسُ » ، « وَالْبِيروني » « وَابْنُ الْهَيْثَمِ » « وَابْنُ سِينَا » وَلَيْسَتْ قُرْصًا مُسْتَدِيرًا ، وَلَا شَكْلًا مُرَبَّعًا ، أَوْ اسْطُوانيًا . وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ الْأَرْضَ تَدُورُ حَوْلَ مَحْوَرِهَا ، مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ، وَالْمَخْلُوقَاتُ وَالْمَوْجُودَاتُ عَلَيْهَا ، مُنْجَذِبُونَ إِلَيْهَا ، بِقُوَّةِ الْجَذْبِ ، وَقُوَّةِ الدَّوْرَانِ ، مَعًا ، وَلَيْسَتْ ثَابِتَةً ، فِي مَرْكَزِ الْكَوْنِ ، كَمَا كَانَ يَقُولُ « بَطْلِمْيُوسُ » . وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ مَا نَشَاهِدُهُ مِنْ حَرَكَاتِ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ ، فِي السَّمَاءِ ، لَا يَرْجِعُ إِلَى دَوْرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ مَحْوَرِهَا ، فَتَتَغَيَّرُ لِلنَّازِلِ الْمَشَاهِدِ وَالْمُرْتِيَّاتِ فِي عَالَمِ السَّمَاءِ . وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ مَعْظَمَ الْيَابِسِ مِنَ الْأَرْضِ فِي نِصْفِهَا الشَّمَالِيِّ ، وَأَنَّ صُورَةَ السَّمَاءِ بِنَجُومِهَا وَكَوَاكِبِهَا ، تَخْتَلِفُ فِي النِّصْفِ الشَّمَالِيِّ مِنَ الْأَرْضِ عَنْهَا فِي النِّصْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنَ الْأَرْضِ . وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ الْقَمَرَ يَدُورُ حَوْلَ الْأَرْضِ ، وَأَنَّ الْأَرْضَ ، وَكَوَاكِبَ أُخْرَى مَعَهَا ، تَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ ، فَتَكُونُ الْفُصُولُ الْأَرْبَعَةُ ، وَأَنَّ الشَّمْسَ تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا أَيْضًا ، وَحَوْلَ مَرْكَزِ الْمَجَرَّةِ ، مِثْلَمَا تَدُورُ الْأَرْضُ حَوْلَ نَفْسِهَا ، وَحَوْلَ الشَّمْسِ . وَسَيَعْرِفُونَ بَرَاهِينَ « الْقَزْوِينِي » وَبِالْمَنْطِقِ الرِّيَاضِيِّ ، عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ .

ورأى « نصير الدين » نزول « القزويني » بالناس في كتابه ، من عالم الفلك الرحيب ، إلى عالم الأرض ، ليقدّم لهم ، مع الحكايات الشعبية والآيات القرآنية ، مافى أعماق الأرض من طبقات ، ودرجات حرارة ، وأخوة وغازات ، ومعادن وفلزات ، وما على سطحها من يابس وماء ، بين جبال وسهول ، وبرارى وصحارى ، وبحار وبحيرات ، وأنهار ونهيرات ، وما يحدث فوقها من زلازل وبراكين ، وحرارة ورياح ، وكيفية حدوثها كلها ، وكيف ومتى يصير اليابس بحراً ، والبحر يابساً ، يعلو هذا وينخفض ذاك ، عبر دورات التاريخ ، كل بضعة آلاف من السنين ، وعمّا يحيط بالأرض من طبقات الهواء ، وما يخرج فيها من نباتات ، وما يسعى فوقها من أجناس البشر ، وأنواع الحيوانات ، والحشرات ، وما يرفرف في فضائها من الطيور والهوام ، وما يسبح في مياهها من أسماك البحر ، وحيواناته البحرية .

وأخذت « نصير الدين » الدهشة من معارف « القزويني » في كتابه ، عمّا في جوف الأرض ، عن نواة

القلب في الأرض ، وقشورتها ، ومياهها الجوفية ، ومعادنها وفلزاتها الخبيثة ، من الذهب والفضة ، والحديد والرصاص ، والماس والنحاس ، والزئبق والكبريت ، والنفط والقار ، وكيفية تكونها عبر العصور والأزمان ، وعن طبقات الأرض الحجرية والجيرية والرمليّة ، وكيفية تكونها ، وحدثها .

وجلس « نصير الدين » يكتب رسالة تحية للقزويني ، يبعث بها إليه من « الرى » إلى بغداد . لكن الرسالة لم تصل إليه قط ، وربما لم تفتح الفرصة لنصير الدين لإرسالها إليه ، لانشغاله بولائه الجديد ، لقوة « المغول » الصاعدة .

فرحة لم تتم

كان كتاب « القزويني » في زمانه حدثاً ، وحدثاً سابقاً لأوانه ، وسابقاً بما فيه من معارف أكثرها لعلماء سابقين ، من اليونانيين والعرب معا ، للمعارف التي ردّها علماء الأرض والفلك والجغرافيا ، في مطلع عصر النهضة في أوربا ، في القرن

السادس عشر والسابع عشر ، وبدءا من « كوبرنيك »
و« جاليليو » .

ولم تتم فرحة « القزويني » ولا أهل العراق ، بهذا
الكتاب ، سوى سنوات ثمان ، فقد اندفع المغول الايلخانية ،
بقيادة « هولاكو » نحو بغداد ، واجتاحوها من الغرب
والشرق ، كالإغصار العاصف ، وقتلوا الخليفة الضعيف
« المستعصم بالله » ، غدرًا ، بعد رضاه بمقابلته لهولاكو
مُصالحًا ، وتقديمه للهدايا والكُتُوز ، وقتلوا معه بنيه وآل بيته ،
وأُسروا زوجته وبناته وجواريه .

وانتقلت الأخبار بسرعة للقزويني ، حيث يُقيم بواسط ،
فأفزعته أن يُجاوز عدد القتلى مائة ألف ، وأن تُدمر حضارة
عصر ، وأن تُحرق مكتبات بغداد ، وأن تُجعل الكُتُب جسرًا ،
تُعبّر عليه خيل المغول ، في نهر دجلة ، من الغرب إلى الشرق .
وزاد في حزنه ماعرفه من تعاون علماء عظام من الفرس ، مثل
« نصير الدين الطوسي » ، مع هولاكو والمغول .

ولم يبق أمام « القزويني » سوى الفرار بأهله ، من العراق

إلى الشام ، حتى لا يأخذه المغول ، بتهمة أنه من رجال
الدولة ، ففر بأهله من العراق ، في السنة نفسها ، سنة سبعمائة
وثمان وخمسين هجرية ، ألف ومائتين وثمان وخمسين ميلادية .

هزيمة المغول

استقرّ المقام بالقزويني وزوجته وبناته وبنيه في دمشق .
وقال لزوجته :

— معنا مالٌ ادخرته لمثل هذه الأيام العصيبة . وعلينا الآن
أن نخفي أنفسنا إلى حين ، فلا يعرف أحدٌ من أنا ، ولا من
أكون . فالمغول لن يتوقفوا عند بغداد ، ولسوف يدفعون
بموجاتٍ أخرى صوب الشام ، ويهددون منها مصر ، وأهل
مصر .

وقضى « القزويني » أيامه في دمشق ، يتابع الأحداث التي
تجرى في مصر ، ويعقد على أمراء ممالكها البحرية الآمال .
ويتجول ساعاتٍ على شاطئ نهر « بردى » ، وفي غوطة
(بستان) دمشق .

وفي مصر كان المماليك بقيادة « قطز » و « بيبرس » يستعدون للقاء محتوم ، ذات يوم ، مع جيوش المغول ، يساندهما الشيخ « عز الدين بن عبد السلام » ، الذي راح يحث الناس على الجهاد ، والتبرع بالأموال .

وتقدمت جيوش المغول ، واحتلت ديار الشام ، وبعثوا يهددون مصر بالحرب ، إذا لم تُسلم وتفتح بلادها لهم كغزاة ، ورفض السلطان « قطز » تهديدات المغول ، واستنفر الناس للحرب ، وخرج في ست عشرة كتيبة ، للقاء المغول ، وبينها كانت أربعة كتائب لفرسان المماليك ، واثنان عشرة كتيبة من الفلاحين المصريين . وحدث اللقاء الرهيب في « عين جالوت » ، وهُزم المغول شر هزيمة ، وصار قتلاهم تلالاً في ساحة القتال . وتراجع « المغول » من ديار الشام إلى العراق . ودوى صدى هزيمتهم بين المسلمين ، ونجت مصر ، وشمال افريقية ، وجزيرة العرب ، من الغزو المغولي .

عندئذ أمن « القزويني » وأهل بيته ، وراقت له الحياة في دمشق ، يشهد عن قرب صراع المماليك لإجلاء الصليبيين عن

الشام ، وقضائهم على جماعة « الحشاشين » الإرهائية ، في ديار الشام .

وفرغ « القزويني » لكي يكتب كتبه الجديدة ، عن : « عجائب البلدان » ، و « صورة الأرض » ، وكان آخرها كتابه الهام : « آثار البلاد وأخبار العباد » . كان الكتاب عن التاريخ البشري ، وأيضاً ، عن الأرض التي يحيا عليها البشر ، وأقاليمها السبعة ، وكان القزويني قد بلغ من العمر آنذاك ، خمساً وسبعين سنة .

في سنة ستمائة هجرية ، ألف ومائتين وثلاث ميلادية ، ولد العالم العربي الجيولوجي : « زكريا بن محمد بن محمود النجادي الكوفي » الشهير بالقزويني .

وفي سنة ستمائة واثنين وثمانين هجرية ، ألف ومائتين وثلاث وثمانين ميلادية ، كانت وفاة عالم عربي ، رفع بصره إلى حركة الأفلاك والنجوم والكواكب في الفضاء الرحيب ،

وحدّق في أعماق الأرض وبرّها وبحرّها ، وبسّط كلّ ماعرفه
ورآه لكافة الناس ، في كتاب .

وفي العالم الإسلامي ، في العصور الوسطى ، لخص
« الباثوني » كتاب : « عجائب المخلوقات » في القرن الميلادي
الخامس عشر ، تحت عنوان : « الآثار من عجائب
المخلوقات » .

وفي العصر الحديث كتّب عن « القزويني » ، عديد من
العلماء والمؤرخين العرب ، كلما تعرّضوا للتأريخ للعلوم
العربية الفلكية ، والجغرافية ، والطبيعية ، أو لعلوم الأحياء .
ومن أشهر هؤلاء العلماء والمؤرخين العرب : « أحمد عيسى » ،
و« عبدالحليم منتصر » ، و« توفيق الطويل » ، و « مقبول
أحمد » ، و« محمد يوسف حسن » الذي تحدّث عن
« القزويني » في مَهْرَجَانِ إسلاميّ عُقد في لندن ، عن « أثر
الفكر الإسلامي في تقدم علم الجيولوجيا » ، عام ١٩٧٦ .

